كلية الآداب

قسم التاريخ

المرحلة الثالثة

المادة / تاريخ أوربا الحديث

مدرس المادة . د. منير عبود

الفصـــل الثالـــث

الثورة الصناعية

تعريـــف

هي عملية التغيير الجذري الذي عاشته أوروبا وفي مقدمتها بريطانيا حيث تحولت المجتمعات الزراعية إلى مجتمعات صناعية فنشأت مدن صناعية جديدة وتوسعت مدن أخرى بفعل الاختراعات ونظام المعمل ، وظهرت طبقات اجتماعية وقيم وتقاليد لم تكن موجودة من قبل . فقد بدأت الاختراعات في النصف الثاني من القرن الثامن عشر واستخدمت في الانتاج في القرن التاسع عشر . ومع أن الثورة الصناعية تقترن بالقرن التاسع عشر ، إلا أنها استمرت في عطائها وتطورها حتى عصرنا هذا . فهي إذن ليست مجرد ثورة وقتية وإنما ثورة دائمة من خلال التطور الذي طرأ على المخترعات والصناعات والمجتمعات في عصرنا الحالي والذي تعود جذوره إلى عصر الثورة الصناعية .

إن الذين عاصروا المتغيرات التي ولدت المجتمع الصناعي لم ينتبهوا لأهمية ما كان يحدث ، لأن تلك المتغيرات لم تتميز بالسرعة والمفاجأة ، يضاف إلى هذا أن الأنظار كانت متجهة في تلك الفترة إلى أحداث سياسية وعسكرية خطيرة مثل الثورة الفرنسية التي كانت زاخرة بكل ما هو مثير للانتباه . والحقيقة أن المفكرين والباحثين وعموم المهتمين بالحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية لم ينتبهوا إلى عمق التغيرات التي حصلت في بريطانيا بفعل الثورة الصناعية إلا بعد أن ظهرت تأثيراتها الواضحة . وقد عرّف الفرنسي P. Mautox الثورة الصناعية التي بدأت في بريطانيا ومن ثم انتقلت إلى بقية أنحاء أوروبا بأنها : التغيرات العميقة التي حولت تدريجيا

تلك المجتمعات التقليدية ذات الطابع الزراعي إلى مجتمعات صناعية يغلب عليها النشاط الصناعي. كما عرفها هيز Hayes بأنها تغيير جوهري ، أو سلسلة من التغييرات الأساسية في طريق الصناعة نقلت الجماهير من الحرف الزراعية الموروثة إلى أساليب جديدة في العمل والسفر والمعيشة بحيث شمل التصنيع جميع هذه النواحي تقريبا[1] . لقد خلقت تلك التغيرات طبقة اجتماعية جديدة كانت تعيش ظروفا قاسية ، تلك هي الطبقة العاملة مما أثار العديد من تساؤلات الباحثين والمفكرين عن تلك التحولات ولاسيما الاشتراكيين الذين اطلقوا عليها إسم الثورة الصناعية في محاولة منهم لاظهار أهميتها وعمقها ؛ في حين اتجه بعض المفكرين إلى تسميتها بالانقلاب الصناعي أو التحولات الصناعية. نتيجة لهذا الواقع ارتبط تاريخ الطبقة العاملة بتاريخ الثورة الصناعية عند الاشتراكيين في أوروبا ، لهذا نجد أن فردريك انجلز عندما تحدث عن وضعية الطبقة العاملة في بريطانيا في كتابه الذي ألفه سنة 1845 قال : أن تاريخ الطبقة العاملة في انجلترا يبدأ في النصف الثاني من القرن الماضي باختراع الآلات البخارية والآلات المخصصة لصناعة القطن . ونحن نعلم أن هذه الاختراعات قد ولدت الثورة الصناعية وغيرت في الوقت نفسه المجتمع البرجوازي وأن انجلترا هي الأرض الكلاسيكية لهذه الثورة .

إن الثورة الصناعية لا يمكن تشبيهها بالتحولات التدريجية أو المفاجئة التي عرفتها القرون السابقة من العصور الحديثة بل وحتى الوسيطة والقديمة منها ، ويعود ذلك إلى طابعها الأكثر تعقيدا وشمولية . فقد أدت الثورة الصناعية إلى الاستعاضة عن المجهود البشري بالآلة على نطاق واسع ، وفرضت المصنع الكبير على حساب المعمل الحرفي الصغير ؛ وبذلك غيرت

(1) كارلتون هيز، الثورة الصناعية ونتائجها السياسية والاجتماعية، تعريب أحمد عبد الباقي، بغداد 1962، ص 16.

العلاقات الانتاجية بشكل جذري وتميزت بزيادة هائلة في الانتاج ، ومكنت من ايجاد وسائل نقل ومبادلات سريعة لم يعرفها الانسان من قبل . كما تطلبت الثورة الصناعية إعادة النظر بشكل شامل في العوائد النقدية والقروض وعموم الحالة الاقتصادية . إن الأوصاف والتعريفات التي أعطيت للثورة الصناعية من قبل الذين كتبوا عنها بعد أن شعروا بها تظهر أن الثورة الصناعية كانت حركة عميقة قلبت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في بريطانيا وبقية الدول الغربية بل والعالم . وبالفعل فإن البشرية لم تعرف في السابق إلا تحولا واحدا في هذا المستوى من العمق : وهو الانتقال الذي تم في العصر الحجري الحديث عندما انتقل الانسان فعلا من مرحلة الجني والقنص والالتقاط إلى مرحلة انتاج الطعام أي الاعتماد على الزراعة وتربية الماشية والدواجن . مما أدى إلى حصول الانسان على تغذية أوفر سببت نموا ديموغرافيا (سكانيا) هاما . ويمكن اعتبار الثورة الصناعية التحول الثاني الحاسم في تاريخ البشرية والتي طورت المجتمع من مستوى زراعي إلى مستوى صناعي أصبحت فيه كل الطاقات متحررة من القيود التي فرضها نظام الاقطاع في العصر الوسيط ومخلفاته في العصور الحديثة .

وبقدر تعلق الأمر بتاريخ محدد للثورة الصناعية كظاهرة اقتصادية اجتماعية ذات آثار تدريجية فإنه من الصعب تحديد بدايتها ونهايتها . ومع ذلك فإن بعض الباحثين يعود بها إلى حوالي القرن السادس عشر ، أي أنهم يربطونها بالاستكشافات الجغرافية والثورة التجارية أو عصر النهضة ، إلا أن المؤلفات والبحوث الاساسية تتفق على حصر حدودها بين 1760 — 1830

لكننا نتفق مع الباحثين الذين يعتبرون أن الثورة الصناعية لا نهاية لها وأن التطور الذي يعيشه عالمنا المعاصر هو امتداد طبيعي لها . ويعمد هؤلاء الباحثون إلى تقسيم الثورة الصناعية على أساس المراحل الثلاث : الثورة الصناعية الأولى وهي مرحلة استخدام الفحم الحجري والآلة البخارية والمخترعات في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . والثورة الصناعية الثانية التي تمثل مرحلة استخدام النفط كطاقة جديدة . أما الثورة الصناعية الثالثة فهي مرحلتنا الحالية حيث اعتمد الانسان على أنواع جديدة من الآلات

مثل العقل الالكتروني واليورانيوم والذرة والطاقة النووية . ولا يوجد فصل تام بين هذه المراحل الثلاث وإنما تتلاحق جميعها في حركة واحدة هي حركة التصنيع التي بدأت مع الثورة الصناعية وما زالت مستمرة إلى يومنا هذا .

أولا : المجتمع الأوروبي قبل قيام الثورة الصناعية

كانت المجتمعات الأوروبية قبل الثورة الصناعية ذات طابع زراعي حيث تسودها الأنشطة الزراعية بمختلف أوجهها ، وكانت تمتاز أيضا بركود في التقنيات سواء في الميدان الزراعي أم الصناعي . إلا أن أوروبا كانت متفوقة تجاريا من خلال قوتها البحرية التي ساعدتها على فرض هيمنتها على بقية القارات .

لقد كانت الأرض تمثل أهم وسيلة للانتاج والحصول على الثروة وتلبية حاجات الانسان اليومية سواء المواد الغذائية أو المواد المستعملة في الحرف مثل الصوف لعمل النسيج وكذلك الجلود والخشب وغيرها من المواد التي توفرها الأرض لصناعة أدوات الانتاج . وكانت الحبوب في مقدمة المنتوجات الزراعية للحاجة إليها ولقلة تكاليف إنتاجها ؛ إضافة إلى تربية الأغنام وغيرها من الدواجن . وهكذا كانت ثروات الأغنياء تتكون من ملكية الأرض وإنتاجها النباتي والحيواني ، وما تدره العملية الزراعية من أرباح . أما رؤوس الأموال الكبيرة فكانت تأتي عن طريق النشاط التجاري . وعموما فإن تلك الثروات لم تكن بالحجم الكبير الذي عرفته أوروبا فيما بعد .

كان الفلاحون يشكلون نسبة 70 % إلى 80 % من سكان أوروبا ، وكانوا يسكنون الأرياف . أما الطبقات الأخرى فهم ملاك الأراضي وهم رأس الهرم الاجتماعي ، وينحدرون من بقايا النبلاء أو من الأثرياء الذين اشتروا الأراضي وأصبحوا يكونون برجوازية عقارية . أما في المدن فقد كان هناك التجار والحرفيون الذين يمتلكون رؤوس أموال ووسائل إنتاج غير متقدمة . ويقسم الحرفيون إلى الصناع المعلمون وهم فئة متوسطة بين الفئات العليا والدنيا والصناع الذين لهم خبرة في الصناعة ولكنهم لا يمتلكون أي شيء

غيرها . وعموما فإنه من الصعوبة تحديد المجتمع الحرفي آنذاك لتعدد مكوناته وللتداخل الذي كان قائما في النشاط الحرفي بين الريف والمدينة ولضعف النشاط الحرفي قياسا بالزراعه والتجارة . وقد كان لمحدودية النشاط الحرفي أثره على الزراعة ، فالأدوات الزراعية بقيت كما هي منذ عصر الاقطاع ، وما طرأ من تغيير عليها كان نسبيا ، حيث ظهر المحراث ذو العجلتين إلى جانب المحراث الخشبي القديم ، لكنه لم يتجاوزه بشكل كبير .

كان عدد سكان أوروبا لا يتجاوز 180 مليون نسمة . فكان عدد نفوس بريطانيا 14 مليون وفرنسا 27 مليون وألمانيا 21 مليون وإيطاليا 18 مليون وروسيا 38 مليون . ولم تكن المدن مزدحمة بالسكان كما هي عليه اليوم : فسكان باريس مثلا لم يكونوا يزيدون على 70.000 نسمة ، ولم تكن هناك أهمية للمدن الصناعية الحالية مثل مانجستر وبرمنكهام وليل وليون ، بل إن أكثر المدن المعروفة اليوم كانت ذات طابع زراعي باستثناء العواصم التي كانت مزدحمة بالسكان نسبيا حيث توجد فيها حركة تجارية وحرفية ويسكنها عادة التجار وبعض ملاك العقار والأرض . وبسبب قلة وسائل النقل ورداءة طرق المواصلات بقيت المناطق الزراعية معزولة بعضها عن بعض وكذلك عن العواصم .

أما نظام الزراعة فقد كان يعتمد على الدورة الثلاثية في شمال أوروبا والثنائية في جنوبها . والمقصود هنا بالدورة الثلاثية أي أن تقسم الأرض إلى ثلاثة أقسام قسم للحبوب الشتوية وآخر للحبوب الربيعية والثالث يترك بدون زراعة ويطلق عليه الأرض المستريحة (البور) لكي تعود للأرض قوتها . ومعنى هذا أن الدورة الثلاثية تؤدي إلى ضياع ثلث الأرض سنويا . ومع ذلك فإن احترام نظام الدورة الزراعية كان إلزاميا للجميع بحيث أن مجموع أراضي القرية يقسم إلى ثلاثة أقسام تتوالى عليها الدورة الثلاثية التي ترتبط بالظروف المناخية والطبيعية . إلا أن هذه الحالة قد تغيرت بالنسبة لأنجلترا مما يفسر لنا أحد الأسباب التي أدت إلى سبق بريطانيا لغيرها من دول أوروبا في الثورة الصناعية . فبسبب تطور حركة إنتاج النسيج في أنجلترا ارتبطت الزراعة بشكل كبير بمسألة تربية الأغنام وإنتاج الصوف ، فظهرت الملكيات الخاصة

المحددة والتي تختلف عن نظام الأرض المفتوحة في القرية ؛ مما كان له الأثر العميق في المجتمع الزراعي وتطوره . ومع وجود المآخذ على الانتاج الزراعي عموما في أوروبا فإن الأرض قد بقيت أساس كل الثروة حتى قيام الثورة الصناعية .

ولابد لنا في النهاية من أن نذكر أن النشاط التجاري كان له ارتباط بالزراعة من خلال عمليات تصدير الحبوب والصوف واستيراد الخمور أما الإنتاج الحرفي فلم يكن يتعدى إنتاج الأدوات والآلات البسيطة .

ثانيا : عوامل قيام الثورة الصناعية في بريطانيا قبل غيرها من دول أوروبا .

يتساءل الباحثون المعاصرون للثورة الصناعية عن سبب ظاهرة الاختراعات في بريطانيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وهل يرجع سببها إلى عبقرية المخترعين أنفسهم أم إلى المحيط الاجتماعي . ولاشك أن هناك صعوبة للفصل بين هذين العاملين لأن الاختراعات كانت في حقيقتها استجابة لضرورات ملحة في المجتمعات التي عاش فيها المخترعون بعد أن استفادوا من خبرة من سبقوهم ، وكانت بريطانيا أول الدول الأوروبية التي ظهرت فيها الاختراعات . وقد تنبهت الدولة البريطانية والبرجوازية العقارية والتجارية إلى الفوائد المرتقبة من هذه الاختراعات مما أدى إلى توفير رؤوس الأموال والعناية بها، إلا أن الثورة الصناعية في بريطانيا لم تلعب دورا حاسما في الحياة اليومية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وبالتحديد في حدود سنة 1780 ولكن التحولات التقنية الكثيرة المرتبطة ببعضها ارتباطا وثيقا ، كانت خلال هذا التاريخ جارية ، وبدأت بريطانيا تقدم للعالم الدليل على أن أوربا جديدا من النمو الاقتصادي المحول ذاتيا والمتسارع ذاتيا قد أصبح منذ الآن في متناول بعض الأمم المتطورة جدا وأن الصناعات النسيجية وبخاصة عوامل صناعة القطن تشهد ثورة في التطور وتحسين نوعية الانتاج وحجمه . ويمكن أن نحدد الأسباب التي أدت إلى سبق بريطانيا غيرها من دول أوروبا في الثورة الصناعية بالشكل الآتي :

1 ـــ استقرار الحالة السياسية

أدت ثورات وحركات القرن السابع عشر في بريطانيا ، وخصوصا بعد الثورة الجليلة سنة 1688 إلى استقرار الملكية والبرلمان والكنيسة مما أدى إلى ابتعاد بريطانيا عن التقلبات والهزات السياسية . لقد فتحت التطورات الدستورية في بريطانيا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الباب واسعا أمام طموحات البرجوازية البريطانية في تسيير شؤون السلطة ، خصوصا بعد توحيد الجزر البريطانية الذي هو في الواقع لا يمثل مجرد توحيد سياسي بل أيضا توحيدا للسوق الاقتصادية البريطانية . من جانب آخر فإن تلك الثورات والتطورات الدستورية قد قضت على بقايا النظام الاقطاعي ومخلفاته لأنها رفعت القيود التي تحدد بيع الأراضي وشراءها ورفعت الجمارك الداخلية وشجعت التجارة فكان لهذه الاجراءات أثرها الرئيسي في التمهيد للثورة التي قادتها البرجوازية الوطنية .

لقد ساعد الموقع الجغرافي للجزر البريطانية في الابتعاد عن ويلات الحروب التي عاشتها أوروبا خلال القرن السابع عشر والثامن عشر حتى قيام الثورة الفرنسية وظهور نابليون . فلم تجر على الأرض البريطانية أية حروب أو معارك كالتي شهدتها أوروبا ، وإن كانت قد شاركت في تلك الحروب فإنها قد خاضتها بعيدا عن أراضيها إما في البحر أو على الأرض الأوروبية وذلك عن طريق المساهمة في إرسال الوحدات العسكرية لدعم الجيوش النمساوية أو الروسية أو البروسية وغيرها . وهكذا استقرت الأحوال في الجزر البريطانية مما ساعد البريطانيين على الاهتمام بالجوانب الاقتصادية والصناعية بالذات والتوجه للاستفادة من المخترعات في التطور الصناعي والزراعي بينما كانت أوروبا تعاني من الحروب . إلا أن هذا التفسير يبقى غير واضح إذا أخذنا بنظر الاعتبار طول تلك الحروب التي تستنزف الاقتصاد الوطني . والحقيقة أن أسواق المستعمرات البريطانية وقوة أسطولها قد ساعدتها يوما بعد يوم على بيع منتجاتها بأسعار تقل عن أسعار منافسيها ، بل انها كانت تنفرد بتميزها عن بقية الدول في انتاج المنسوجات القطنية والصوف لملائمة مناخها ولتطور

زراعتها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر . لقد أدى هذا الشيء إلى نمو تجاري سريع يعتمد على أسس سليمة كان من نتائجه تعزيز وضع بريطانيا الدولي اقتصاديا ، وقد لاحظ ذلك الباحثون المعاصرون لتلك الفترة . إن هذا الوضع الاقتصادي المتين قد هيأ لبريطانيا في خروجها منتصرة من المنازعات الاستعمارية وفي دعم حروبها (المكلفة ، الطويلة)

2 ــ الحركة التجارية ونمو الرأسمالية البريطانية .

انعكس استقرار الحالة السياسية في بريطانيا على الحركة التجارية فيها بشكل إيجابي ومؤثر ، ونقصد بهذه الحركة : (التجارة الخارجية) التي أولتها الحكومة البريطانية عناية فائقة منذ القرن السادس عشر لأنها تدر ثروات كبيرة من المعادن الثمينة كالذهب والفضة في وقت تمسكت فيه الدولة بالأفكار المركانتيلية التي تقول ان قوة الدولة تتصاعد كلما توفرت لديها مدخرات أكثر من المعادن الثمينة . كما دعت إلى تدخل الدولة في الاقتصاد بهدف زيادة تلك المدخرات وبأشكال متعددة منها زيادة العوائد الجمركية لحماية الاقتصاد الداخلي من المنافسة الخارجية التي هي أمر طبيعي بين الدول ، لأن مصالحها الاقتصادية ومصالحها الاخرى لا يمكن أن تتواجد معا تماما . ويجمع المركانتيليون على أن الثروة الاقتصادية والقوة السياسية والعسكرية مرتبطة ببعضها ارتباطا وثيقا : لأن الموارد الوفيرة والقدرة الضريبية المرتفعة تساعدان الدولة على إمداد جيوشها البرية والبحرية وبالتالي حماية تجارتها والحصول على المستعمرات . في الوقت نفسه فإن هذه التجارة وهذا التوسع الاستعماري يوفران بدورهما الأموال الضرورية لايجاد قدرات عسكرية أكثر قوة .

لقد شجعت الحكومة البريطانية التجارة مع القارات والبلدان البعيدة التي تشكل موردا للمعادن الثمينة . ولتسهيل ذلك قامت ببناء الأساطيل البحرية التجارية ، وأصدرت مجموعة من القوانين قانون كرومويل Crommwell الذي يعود إلى سنة 1651 حيث منع بموجبه جلب البضائع الأجنبية إلى

بريطانيا على سفن غير بريطانية ، وكان هذا يعني أن على من يمارس التجارة الخارجية أن يمتلك سفنا تجارية ، مما يؤدي إلى التقليل من أهمية السفن التجارية للدول الأوروبية الأخرى ومنافستها في هذا الميدان . ولقد أدى تطبيق هذا القانون إلى تطور الأسطول التجاري البريطاني بشكل كبير ، وأصبح ينافس الأسطول الهولندي في الزعامة البحرية منذ القرن الثامن عشر . فقد توسع حجم الأسطول التجاري البريطاني من 3300 سفينة بسعة 260.000 طن سنة 1702 إلى 8100 سفينة حمولتها 000. 590 طن سنة 1764 ، ثم إلى 000. 940 سفينة سعتها (حمولتها) أكثر من 000. 695 طن سنة 1776 . وقد تصاعدت هذه الزيادة بسرعة كبيرة في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر ؛ وازدادت قدرتها في النقل بمقدار خمسة إلى ستة أضعاف بين السنوات 1700 — 1800 .

لقد كان التجار يقومون بتجهيز بريطانيا بالمواد الأولية والرساميل وتوفير الأسواق ، وقد لعبوا دورا رئيسيا في بدايات الثورة الصناعية في بريطانيا . يضاف إلى هذا تشجيع الحكومة البريطانية وتأسيسها شركات كبرى لتأمين التجارة البريطانية في مناطق محددة وبعيدة بشكل لا يسمح بمنافسة الشركات الوطنية الأوروبية الأخرى لها . وأبرز مثال على ذلك شركة الهند الشرقية التي احتكرت التجارة في الهند ومنطقة الخليج العربي . ومنذ سنة 1750 أصبحت تمارس العمل العسكري في تحقيق طموحات بريطانيا التجارية . لقد ساهمت شركة الهند في ترسيخ الاستعمال البريطاني في المنطقة ، كما حققت هذه الشركة وغيرها من الشركات البريطانية في آسيا وافريقيا والأمريكتين أرباحا خيالية مما ساعد على تكدس رؤوس الأموال التي لعبت دورا رئيسيا في قيام الثورة الصناعية . أما عن شركة الهند الشرقية الفرنسية فقد لقيت مصيرا مخالفا تماما إذ غلبتها منافستها البريطانية ، وأثقلتها ديونها وصفيت سنة 1769 . وعندما بعثت من جديد في سنة 1785 لم تستمر في تماسكها طويلا في الهند فقد سقطت الوكالات التي تبقت لها بأيدي البريطانيين خلال حروب الثورة الفرنسية التي شغلت أوروبا كلها مجعلت بريطانيا تحتل مركز الصدارة في التجارة الخارجية العالمية.

لقد قاوم كثير من أرباب الصناعات المنزلية حركة قيام المعمل ونظامه ، خصوصا وأنها تركتهم بلا عمل لأن الآلة لا تتطلب تشغيل كل من يرغب في العمل ، فهاجم بعضهم مصانع النسيج لتحطيمها ؛ إلا أنهم اضطروا في النهاية إلى قبول الواقع الجديد . ومع ذلك فإن نظام العمل المنزلي لم ينقرض تماما بقيام الثورة الصناعية وبقي يعيش ، ولو بشكل محدود ، جنبا إلى جنب مع النظام الجديد إلى فترة طويلة من الزمن .

إن وفرة الانتاج وانخفاض كلفته وتوفر الجودة والمهارة وسرعة الانجاز هي بلا شك حسنات لم يكن بالامكان التوصل إليها إلا بقيام نظام المعمل ، لكن هذا النظام كانت له أيضا مردودات سلبية سيئة . ذلك أن المعمل أنشيء على عجل وبكلفة زهيدة دون مراعاة للأمور الصحية ، إذ لم يكن هناك اهتمام بالتهوية والاضاءة والشروط الصحية الأخرى . وكان العمال يحشرون في العمل داخل المعمل وبتلك الشروط القاسية دون مراعاة للسن أو الجنس ، بل إنه كان هناك تفضيل ملحوظ لدى الرأسماليين الصناعيين في استخدام النساء والأطفال لأنهم أكثر انصياغا للأوامر وأخف حركة وأكثر إخلاصا في عملهم . وقد وصل الأمر إلى استخدام النساء والأطفال في المناجم لسحب عربات الفحم داخل المنجم أو على الخطوط الحديدية خارجه . وكان في بعض المعامل أطفال في سن الثامنة أو التاسعة يعملون من الساعة الخامسة أو السادسة صباحا وحتى العاشرة أو الحادية عشرة ليلا دون وجود وقت للراحة عدا أوقات تناول الطعام القصيرة جدا . وقد عمدت بعض المعامل إلى معاملة الأطفال المتسولين كالرقيق ، حيث بدأت تأويهم في الطبقات العليا من المعمل وتطعمهم فأصبحوا أشبه بالعبيد لصاحب المعمل . ولم يكن غريبا أن يعمد رئيس العمال إلى ضرب الأطفال وعقاب الذين ينامون أثناء عملهم أو الذين يخرجون على الأنظمة .

إن استخدام النساء والأطفال في العمل لم يكن جديدا ، لكن الجديد في الأمر استخدامهم بجماعات كبيرة خارج منازلهم مما كان له الأثر في انحلال العائلة والأخلاق . لذلك لم يكن غريبا أن يؤدي نظام المعمل إلى تغيير في العلاقات العائلية التقليدية . كما كان لتشغيل النساء والأطفال تأثير

واضح في انخفاض مستوى الأجور والمعيشة وحرمان كثير من الرجال القادرين على العمل .

من جانب آخر فإن نظام المعمل الجديد لم يكن فيه أي ضمان للعاملين فيه في حالة المرض أو استغناء صاحب العمل عنهم ، ولم يكن لهؤلاء العمال ، كما كانوا في السابق أرض زراعية أو حتى حديقة صغيرة يستطيعوا استغلالها إذا ما فقدوا أعمالهم الصناعية أو تعطلوا عن العمل المنزلي لسبب أو لآخر . وبسبب فيض العمال في المدن أصبح الاستغناء عن العامل أمراً لا يشكل أية مشكلة لصاحب المعمل وذلك لتيسر الحصول على غيره ممن يحل محله بأجور أرخص ، فظهرت البطالة المزمنة .

ومن الظواهر الأخرى التي صاحبت نظام المعمل هي تجمع السكان العاملين حول المراكز الصناعية المزدحمة بالمكائن ودواليب الماء والمداخن . لقد شيدت هذه البيوت بسرعة وبقليل من التكاليف ودون اهتمام براحة البشر ، فأصبحت الأحياء قذرة ومزدحمة بالسكان بحيث أن العائلة الواحدة أخذت تسكن بأكملها في غرفة أو غرفتين ، بل إن بناية واحدة كانت تضم أحيانا عدد من الأفراد أكثر مما كانت تضمه القرية الزراعية .

إن هذه المساوىء لم تكن الحصيلة الوحيدة لنظام المعمل ، فقد كانت إلى جانبها فوائد تمثلت في تجميع العمال وتوحيد كلمتهم لتحقيق مصالحهم بعكس العمل المنزلي الذي جعل الروابط بينهم ضعيفة ، كما أن ذلك التجمع قد قضى على العزلة والجمود السابقين مما قاد إلى تغييرات سياسية واجتماعية كبيرة انعكست على عموم الحياة الأوروبية خلال القرن التاسع عشر والعشرين .

رابعا : انتشار الثورة الصناعية

اقتصرت الثورة الصناعية في بدايتها ـــ كما رأينا ـــ على بريطانيا دون غيرها من دول أوروبا للظروف الخاصة التي توفرت لها مما ساعدها على حمل راية الثورة الصناعية . في حين عاشت أوروبا حروب الثورة الفرنسية ونابليون

منذ سنة 1789 وحتى 1815 ، واستمر نشاط النظام الاقتصادي الزراعي ، خصوصا بعد تثبيت ملكية الأرض للفلاح في فرنسا والتي أخذت بها معظم الدول الأوروبية التي خضعت لامبراطورية نابليون . كما أن صدور التشريع البريطاني بمنع تصدير المكائن إلى الخارج حتى سنة 1825 قد لعب دوره في تخلف الثورة الصناعية في بريطانيا عن بقية أنحاء أوروبا . إلا أن الأوضاع تغيرت بعد سنة 1815 حين استقرت الحالة السياسية عموما في أوروبا ، والغي منع تصدير المكائن من بريطانيا . يضاف إلى هذا زيادة الرأسمال الصناعي البريطاني قد دفع بعض الانجليز إلى استثمار الفائض من أموالهم في مشاريع خارج بريطانيا . كذلك فإن حركة الاختراعات والتطور الصناعي قد جذبت الطموحين من أبناء البلاد الأوروبية إلى زيارة بريطانيا ودراسة أحوالها الصناعية والمالية ومحاولة تقليدها والسير على خطاها . من جانب آخر فإن نجاح خط السكك الحديدي الذي افتتح في انجلترا سنة 1830 قد بشر حماسا شديدا لتوسيع الخطوط الحديدية في بريطانيا لوحدها ، بل في قارة أوروبا أيضا . وقد كان لنشوء الرأسمالية الصناعية في أوروبا ورعاية أصحاب المصارف ورجال السياسة لها ، الأثر الكبير في تيسير اعتمادات مالية كبيرة أكملت الاستثمار الخارجي للرأسماليين الانجليز . ولاشك أن توفر المواد الأولية الضرورية لقيام الصناعة مثل الفحم والحديد قد ساعد أيضا على انتشار الثورة الصناعية وانتقالها من بريطانيا إلى بقية أنحاء أوروبا .

يقول المؤرخ فيشر أن أوروبا باستثناء بلجيكا لم تشهد الثورة الصناعية على حقيقتها إلا في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر ، ويقدم الدليل على ذلك حيث يذكر أنه لم تكن في فرنسا خلال السنوات 1815 — 1844 سوى مدينتين صناعيتين هما إتيين وروبيه ، أما عن ألمانيا فقد نقل عن الدكتور كلابام أستاذ التاريخ بجامعة كمبرج سابقا إن الألمان كانوا يهتمون بالرسم والكيمياء وصناعة أواني المائدة المعدنية ، ولم يهتموا في البداية بالصناعات الواسعة الأخرى .

وتجمع المصادر على أن انتشار الثورة الصناعية قد بدأ في بلجيكا . ويعود ذلك بالدرجة الاساس إلى اتجاه الرأسماليين الصناعيين لاستثمار

الفائض في أموالهم في بلجيكا عن طريق التهريب . فعندما كانت الحروب النابليونية مستمرة تعاون عدد من الميكانيكيين وأصحاب رؤوس الأموال من الانجليز في تهريب مكائن النسيج وغيرها من بريطانيا ونصبها في معامل ببلجيكا . ومن هؤلاء وليم كوكريل William Cockerill الذي أسس في جنوب بلجيكا (وكان هذا الجزء تابعا حينذاك لفرنسا) أول المكائن لتمشيط الصوف وغزله في القارة الأوروبية بمساعدة رأسمال إنجليزي ، كما أسس سنة 1807 معملا واسعا لصنع الآلات في لييج . وفي سنة 1817 تعاون ابن كوكريل مع وليم الأول ملك الأراضي المنخفضة (توحدت بلجيكا وهولندا بقرار من مؤتمر فيينا سنة 1815) وأسس شركة لتأسيس معمل كبير لصهر الحديد في سيران القريبة من لييج ، وقد أصبحت سيران في سنة 1840 أوسع مؤسسة من نوعها في العالم لصنع المحركات البخارية . إضافة إلى معمل القطن والصوف والكتان ومصنعا للورق كان يمتلكها كوكريل في بلجيكا . ويمكن القول أن الثورة الصناعية قد بدأت تسرع في بلجيكا بعد سنة 1830 مع أنها بدأت فيها قبل هذا التاريخ . فبعد أربع سنوات من إنجاز خط السكك الحديدية بين لفربول ومانجستر في انجلترا ، أي سنة 1834 ، وافق البرلمان البلجيكي على مشروع اقترحه جورج ستيفنسن لتأسيس مجموعة من خطوط السكك الحديدية تتشعب من لييج وبروكسل ، وقد نفذ المشروع بنجاح وبسرعة وبقروض عقدت في بريطانيا .

أما عن فرنسا فإن تصنيعها كان أبطأ وأقل شمولا من بلجيكا ، ويعود ذلك بالدرجة الأولى إلى عدم كفاية مواردها المعدنية ، ولالتزامها وتماسك تقاليدها في العمل اليدوي وصناعة الكماليات والزراعة . وعندما توغلت الثورة الصناعية فيها فإنها قد شملت صناعة التعدين في انتاج الفحم والحديد والمحركات البخارية ، ولم يبدأ الاهتمام بالصناعات الآلية إلا بعد سنة 1830 وبالتخصيص في عهد لويس فيليب ونابليون الثالث ، وقد امتد أول خط للسكك الحديدية في فرنسا بين باريس واطافر سنة 1842 وقد بنته شركة إنجليزية برأسمال وعمال انجليز . وازداد منتوج الفحم الفرنسي بين سنتي 1830 و 1870 من مليون وثمانمائة ألف طن سنويا إلى ستة عشر مليون

المحاضرة الثانية

ثورات 1830

كانت ثورات 1830 نتيجة طبيعية للتطورات السياسية والفكرية القومية التي شهدتها أوروبا خلال الفترة التي أعقبت مؤتمر فينا وقراراته التي أخضعت العديد من البلدان للحكم الأجنبي دون اهتمام لرغبات سكانها ولواقعهم القومي ، ولذلك كان هدف ثورات 1830 إقامة الحكم الدستوري الذي يضمن الحقوق القومية في الحرية والمساواة وحق تقرير المصير ، وقد اتخذت بعض هذه الثورات طابعا دمويا عنيفا مثل فرنسا وبلجيكا وبولندا . وفي الواقع فإن ثورة فرنسا كانت الحافز والمشجع لقيام الثورة في هذين البلدين وبلدان أخرى مثل إيطاليا ، إضافة إلى تأثيرها على الحياة السياسية في سويسرا وبريطانيا .

١) ثورة فرنسا :

أعيد لويس الثامن عشر إلى عرش أجداده في فرنسا على أسنة حراب جيوش الحلفاء التي احتلت فرنسا ، فكانت عودته بعيدة عن المجد والعز

اللذين تتعطش إليهما الأمة الفرنسية . إلا ان عودة الملكية إلى فرنسا لم يؤد إلى إعادة عجلة التاريخ إلى الوراء ، خصوصا بعد درس حكم المائة يوم الذي أقنع لويس الثامن عشر وأوروبا أنه لابد من اتباع سياسة الموازنة بين الواقع ومتطلبات السياسة الجديدة ، ذلك أن التحول الذي أوجدته الثورة الفرنسية ونابليون كان عميق الجذور في المجتمع الفرنسي مما يصعب إعادة الأمور إلى ما كانت عليه قبل سنة 1789 . لهذا بقيت قوانين المساواة والحرية الشخصية سارية المفعول كما استمرت تشكيلات الحرس الأهلي واستمر العمل بقانون نابليون القضائي ولم يجرد الفلاح من المكتسبات التي حصل عليها ، كما لم يتمكن أحد من إلغاء وسام جوقة الشرف الذي استحدثه نابليون ، ولم تقفل الجامعة التي أسسها أبوابها . إما صلح الكونكردات فقد أصبح قوي الجذور راسخا بحيث لم يكن بمقدور الاكليروس الفرنسي تركه . من جانب آخر منح لويس الثامن عشر الفرنسيين دستورا ضمن لهم فيه الحريات العامة والمكتسبات الاجتماعية التي حصلوا عليها زمن الثورة ونابليون لكنه أعطى في الوقت نفسه الملك الفرنسي السلطات التنفيذية وجعل السلطة التشريعية موزعة بين مجلسين : مجلس للاعيان يعين الملك أعضاءه ومجلس للنواب منتخب من قبل الشعب بطريقة الانتخاب غير المباشر مع حصر حق الانتخاب بمن يدفع 300 فرنك سنويا كضريبة مباشرة . وقد عرف هذا الدستور باسم دستور أومثياق 1814 .

إن هذا لا يعني أن المهاجرين لم يعودوا ولم يحصلوا على مراكز في الجيش والادارة . لقد حدث هذا وألغي علم الثورة المثلث الألوان ورفع مكانه شعار آل بوربون الأبيض ذي الزنبقة الصفراء ، وكان كل هذا يعني أن هناك فئتين سياسيتين في المجتمع الفرنسي واحدة تمثل جماعة الملكيين المتطرفين الذين أرادوا استغلال عودة آل بوربون ليحصلوا على ما حرمتهم منه الثورة وليعودوا بفرنسا إلى الحكم الملكي المطلق . أما الجماعة الثانية فهم الجمهوريين والليبراليين الذين كانوا يطالبون بسيادة الأمة والحرية الكاملة لها . بين هاتين الجماعتين وجد الملكيين الدستوريين المؤيدين لسياسة الملك المعتدلة والمتمسكين بدستور 1814

استخدم جماعة الملكيين المتطرفين وسائل العنف والارهاب لتحقيق أهدافهم ، واستغلوا المادة التي تحصر حق الانتخاب بمن يدفع الضريبة السنوية ليحصل الأثرياء فقط من جماعتهم على أغلبية مقاعد مجلس النواب **الـــذي انتخب في 15 آب 1815 ، فشهـــدت فرنســـا اثر ذلـــك حكمـــا** رجعيا معاديا للحرية مما أخل بسياسة التوازن التي أرادها لويس الثامن عشر أساسا لحكمه ، وبدأ هذا الأخير يشعر برياح الاستياء التي بدأت تعم الفرنسيين ، كما نبهته حكومتا بريطانيا وروسيا إلى خطورة السياسة الفرنسية الجديدة التي قد تبعث روح الثورة من جديد ونصحتاه بإجراء انتخابات جديدة . مما دفع الملك إلى حل المجلس النيابي . وقد اسفرت الانتخابات الجديدة عن فوز الملكيين الدستوريين بأغلبية 142 مقعدا ، بينما حصل المتطرفين على مائة مقعد ، ولم ينل المنادين بالحرية الكاملة سوى عشرين مقعدا . وعاشت فرنسا نوعا من الاستقرار السياسي حتى سنة 1820 تمكن خلالها رئيس وزرائها ريشيلو من إزالة آثار الهزيمة ودفع معظم التعويضات وإنهاء الاحتلال العسكري قبل أجله المقرر وفقا لقرار مؤتمر اكس لاشابيل سنة 1818 . وأعطى الشعب الفرنسي مزيدا من الحرية والمكتسبات بتعديل قانون الانتخابات الذي زاد بموجبه عدد الناخبين وأصبح الانتخاب مباشرا . وفي تدبير آخر ألغيت الرقابة على الصحف نهائيا ، فسادت أجواء الحرية وحملت انتخابات 1819 عددا كبيرا من دعاة الحرية والجمهورية إلى مجلس النواب الذي أصبح يضم عددا لا بأس به من رجال الثورة القدماء .

لم تدم هذه الأجواء طويلا ، فقد عكرتها عملية اغتيال الدوق دي بري ، ابن شقيق الملك لويس الثامن عشر ، على يد شاب فرنسي متهور مما أثار غضب الملك وأفقده الثقة بصواب السياسة التي كان ينتهجها ، ومما زاد في الأمور سوءا ارتفاع صيحات الملكيين المتطرفين بزعامة والد الأمير المقتول التي نادت باتخاذ سياسة حازمة وقوية تعيد للعرش هيبته وسلطته وتحميه من خطر دعاة الجمهورية ، فأقدمت الحكومة الفرنسية على تعديل قانون الانتخاب بشكل مكن الملكيين المتطرفين من إعادة سيطرتهم على مجلس النواب في سنة 822 [illegible] الملك بإبعاد ريشيليو عن الوزارة وتعيين أحد

زعمائهم بدلا منه ، وهو المتطرف (فيال) الذي أطلق العنان لسياسة القمع الشديدة ضد الحركات الجمهورية والتحررية ، وأعيدت الرقابة على الصحافة وكممت الأفواه . وفي سنة 1824 توفي لويس الثامن عشر ليخلفه شقيقه الكونت دارتو الذي اغتيل ولده من قبل ؛ فأصبحت سيطرة الملكيين المتطرفين كاملة وبدأت الحكومة الفرنسية تحاول العودة بفرنسا إلى ما كانت عليه قبل قيام الثورة الفرنسية . فتصاعدت المعارضة التي تكونت من المثقفين والكتاب والصحفيين المؤمنين بالجمهورية ومبادىء الثورة الفرنسية والذين صعقوا لالغاء الحرس الأهلي وطرد ضباط نابليون من الجيش . لقد سميت هذه المعارضة باليسار ، أما الوسط فقد تكون من الملكيين الدستوريين المؤلفين من مثقفين وكبار التجار وأصحاب المعامل . وفي أقصى اليمين انشقت فئة من الملكيين المتطرفين بزعامة شاتوبريان بسبب إبعادهم عن السلطة .

أقدم الكونت دارتو الذي أصبح يحكم فرنسا باسم (شارل العاشر) على حل البرلمان الفرنسي لرفضه فرض مزيد من الرقابة على الصحف . وفي الانتخابات التي جرت سنة 1828 فاز تحالف الملكيين الدستوريين وبعض الأحرار والجمهوريين المعتدلين بالأغلبية ، ومع ذلك استمر شارل العاشر ينتهج سياسة متطرفة فعين (بولينياك) المعروف بعدائه للتحرر رئيسا للوزراء(5) ، فحكم البلاد بلا برلمان لمدة سبعة شهور متحديا المعارضة العنيفة للغاية التي وقفت ضده . وقد بدأت بوادر الثورة في الجلسة الأولى لمجلس النواب التي عقدها في 30 مارس (آذار)1930 حينما طالب المجلس المشاركة في الحكم ونزع الثقة عن الحكومة ، فغضب الملك وحل البرلمان ، لكن الانتخابات الجديدة أعطت نصرا قويا للأحرار وزاد عدد نوابهم في مجلس النواب . ومع ذلك لم يكف شارل العاشر عن محاولاته في إعادة السلطة المطلقة لعرش آل بوربون ، وقد توقع أن نجاح الغزو الفرنسي

---

(5) كان بولنياك من أوائل النبلاء الذين هاجروا قبيل الثورة وألقي في السجن في عهد الامبراطورية ، يحلف يمين الولاء للدستور 1815 .

الاستعماري للجزائر سنة 1830 وامتلاء الخزينة الفرنسية الفارغة بحوالي خمسين مليون فرنك ذهبي سلبت من أموال الشعب العربي في الجزائر ، سيمكنه من تنفيذ أحلامه ، فتحدى المعارضة بإصدار أربعة مراسيم في 25 يوليوز (تموز)1830 ، قضت بحل المجلس الجديد وتقييد حرية الصحافة وتعديل قانون الانتخاب لصالح الفئات المساندة له . وكان من الواضح — كما يقول فيشر — أن شارل العاشر وبولينياك لم يبغيا من تعديل القانون رفض المطلب الخاص بتوسيع دائرة الناخبين ، وهو المطلب الذي كان يتصاعد ويزداد شدة خلال تلك السنة ، بل إنهما قصدا تمزيق الدستور ذاته ومحق الحرية في جميع أشكالها .

أدركت المعارضة نوايا التوجه الجديد لشارل العاشر فكان الرد أن اندلعت الثورة في باريس يوم 27 يوليوز (تموز)1930 ، أي بعد يومين من صدور المراسيم . ودار قتال في شوارع باريس حتى يوم 29 يوليوز احتلت الجماهير في نهايته قصر الملك شارل العاشر (التويلري) وسيطرت على العاصمة كلها . وقد حاول الملك استرضاء الجماهير بالتراجع عن مراسيمه الأربعة ، لكن ذلك لم ينفع فاضطر شارل العاشر إلى الهرب إلى خارج البلاد ، وقضي بذلك على حكم آل بوربون في فرنسا إلى الأبد .

لقد قررت باريس مصير فرنسا واختفى العلم الملكي الأبيض قبل أن يستفيق أنصار شارل العاشر في الأقاليم من غفوتهم ودعى دوق دورليان ليصبح ملكا باسم لويس فيليب . كان دورليان زعيما لعائلة أورليان العريقة وابن الدوق فيليب مساواة الذي ناصر الثورة الفرنسية منذ أيامها الأولى رغم قرابته للويس السادس عشر ، بل إنه صوت في حينها إلى جانب إعدامه قبل أن يفقد رأسه على المقصلة في عهد الأرهاب . ومع ذلك بقي ابنه دورليان بعيدا عن أوساط المهاجرين ، فلم يتآمر معهم ولم يعاد الشعب أو حكم الأمبراطورية ، وبقيت علاقته ممتازة بالأوساط التحررية بعد سقوط نابليون .

لقد كانت ثورة يوليوز (تموز) 1830 ضربة خطيرة لمقررات أوروبا في مؤتمر فينا ، ففيها انهار جزء أساسي من النظام الأوروبي وهم سلالة آل

بوربون ، إضافة إلى الصدى الذي احدثته هذه الثورة في جميع أنحاء أوروبا . كذلك امتازت الثورة بطابعها القومي التحرري المناوىء للأفكار الرجعية ، فقد قال أحد زجالها وهو كافنياك في 31 يوليوز 1830 إلى الدوق اورليان قبل أن يصبح ملكا « إنها ليست ثورة حرة ليبرالية ، فكر بذلك جيدا : إنها ثورة قومية » . وفي مناقشة إعادة النظر في الدستور طالب الشباب الجمهوري في 6 غشت الزحف على الراين لاسترداد الضفة اليسرى منه (6) . وكتبت إحدى الصحف الفرنسية قائلة « إن أماني أوروبا تدعو فرنسا للتقدم إلى الصفوف الأمامية بين الأمم لتقبل باعتزاز هذه المهمة السامية وتمسك بيد قوية صولجان العالم لتضرب بشدة الأمراء والاباطرة الارستقراطيين الذين يتمادون بعنادهم الأحمق في الحفاظ على حكم شعب لصالح شعب آخر (7) . »

ثورة بلجيكا :

انتقلت شرارة ثورة باريس 1830 إلى مناطق أخرى من أوروبا ، وكانت بروكسيل عاصمة بلجيكا من المتأثرين بتلك الثورة . فبموجب قرارات مؤتمر فينا ضمت بلجيكا إلى هولندا لتصبحا دولة واحدة تحت حكم وليم أوف أورنج رغم الفروق القومية والتاريخية والدينية بينهما : فقد كان الهولنديون بروتستانت فيما كان أكثر البلجيك من الكاثوليك المتدينين المتزمتين . كما كان البلجيك يتكلمون الفرنسية ويرتبطون حضاريا بالعالم اللاتيني ، بينما كان الهولنديون يتكلمون لغتهم الخاصة ويتصلون حضاريا بالعالمين الجرماني والساكسوني . ومع كل هذه الفروقات لم يظهر الهولنديون عدالة أو حكمة في التعامل مع هذه الظروف المعقدة ، فقد فرضوا الهولندية لغة رسمية وحاولوا تعميمها على دوائر ومدارس بلجيكا ، واستأثروا بالوظائف

---

(6) حاطوم . الحركات القومية ، ج ، ص 22 .
(7) المصدر السابق ، ص 24 .

العليا في الجيش والادارة والقضاء والسلك الدبلوماسي وخصصوا لأنفسهم مقاعد في مجلس النواب أكثر مما يحق لهم بالنسبة لعدد نفوسهم . ولم يستطع البلجيك التخلص من هذه الحالة رغم إحساسهم بالمرارة والأسى ، فقد كان التحالف المقدس والرباعي يجتمعان على صدورهم ، إضافة إلى انقسام البلجيك إلى حزبين سياسيين وهما الحزب الكاثوليكي الذي ينادي بحرية التعليم ورفض علمانية الدولة ، وحزب الأحرار الشديد التمسك بالعلمانية وبضرورة سيطرة الدولة على التعليم . إلا أن عام 1828 شهد تقاربا وإنهاء للخلافات بين هذين الحزبين الذين اتفقا على برنامج مشترك أهم ما فيه قبول الفريقين بمبدأ حرية الصحافة وحرية التعليم . وفي سنة 1830 كانت بلجيكا تنتظر الحدث الذي يفجر الموقف ، فكانت ثورة باريس ، إذ اندلعت أعمال العنف والثورة في بلجيكا بعد حوالي شهر واحد من تلك الثورة وتمكن الثوار من إنزال الهزيمة بالقوات الهولندية التي أرسلها الملك لقمع الثورة وتشكلت حكومة وطنية مؤقتة ، وفي 4 أكتوبر (تشرين الأول) أعلن استقلال البلاد وانتخب مؤتمر وطني لها .

استنجد الملك الهولندي بالدول الكبرى ، فعارضت فرنسا التدخل وهددت باحتلال البلاد إذا حدث أي تدخل أجنبي . وفي الواقع فإن الفرنسيين قد رأوا في ثورة بلجيكا واستقلالها إسنادا كبيرا لثورتهم وضربة قاصمة لمقررات مؤتمر فينا الذي أراد من اتحاد هولندا وبلجيكا جدارا يقف أمام أي مطامح توسعية لفرنسا باسم القومية وكانت روسيا مشغولة بثورة بولندا . أما البريطانيين فقد عارضوا التدخل ودعوا إلى عقد مؤتمر دولي ضم الدول الخمس الكبرى في لندن في نوفمبر (تشرين الثاني) أقر الانفصال واعترف باستقلال بلجيكا التي أصبح الأمير ليوبولد كوبورغ ملكا عليها (8) ولكي تضمن بريطانيا عدم وقوع بلجيكا تحت النفوذ الفرنسي فقد تقرر بعد ذلك إعلان حيادها التام . ويجمع المؤرخون على أن استقلال

---

(8) وهو خال الملكة فكتوريا والزوج السابق لابنة ملك بريطانيا شارلوت المتوفاة وقد تزوج فيما بعد من ابنة ملك فرنسا لويس فيليب.

المحاضرة الثالثة

أنظار فرنسا إلى شمال أفريقيا وإلى تقوية نفوذها في البحر المتوسط . وهذا يعني إعطاء الضوء الأخضر لفرنسا للسيطرة على بقية أجزاء المغرب العربي بعد أن كانت قد اقتطعت الجزائر من الدولة العثمانية سنة 1830 . وهذا رفضت فرنسا الاعتراف بفرمان 1871 الذي اعترف فيه (باي) تونس بالسيادة العثمانية وقد جاء هذا الرفض بعد أن وافقت بريطانيا على حرية تصرف فرنسا في تونس كتعويض عن احتلال بريطانيا لجزيرة قبرص ، وعليه فإن المانيا وبريطانيا وإيطاليا لم تستجب للاستغاثة التي أطلقها باي تونس. واحتل الفرنسيون تونس الخضراء سنة 1881 . ولكي تضمن بريطانيا تفوقها في المنطقة احتلت مصر بعد عام واحد فقط . وفي الواقع فإن اتفاقات مؤتمر برلين كانت اسفينا قويا في نعش الامبراطورية العثمانية لأنها قادت إلى تنافس استعماري واتفاقات انتهت باستلاب كل ممتلكات الدولة العثمانية ومن ثم القضاء عليها في الحرب العالمية الأولى ، فبعد احتلال بريطانيا لمصر والسودان ، احتلت إيطاليا ليبيا سنة 1811 وتقاسمت فرنسا وبريطانيا المشرق العربي (العراق وبلاد الشام وفلسطين) بموجب معاهدة سايكس بيكو السرية سنة 1916 والتي أصبحت نافذة المفعول باحتلال الحلفاء للمنطقة خلال الحرب العالمية الأولى بحيث أن نهاية تلك الحرب سنة 1918 كانت أيضا نهاية للأمبراطورية العثمانية التي لم يبق منها غير تركيا التي كانت تحكم الامبراطورية والتي أصبحت دولة صغيرة تقتصر حدودها على آسيا الصغرى وتعرف بتركيا الحديثة .

ثانيا : المعضلة الايرلندية

ترتبط المعضلة الايرلندية بقضية الصراع الطائفي المسيحي بين البرتستانت الأنجليز والكاثوليك الايرلنديين ، إلا أن الأمر اتخذ أبعادا أعمق وتطور الصراع إلى قضية قومية بين أمة تريد التحرر وبين سلطة تريد المحافظة على وحدة جزرها . وقد ساعد على وصول القضية إلى هذه المرحلة كون ايرلندة جزيرة واسعة ومن أبعد الجزر البريطانية عن أنجلترا . يضاف إلى هذا مسائل اقتصادية تتعلق بمصادر الانتاج وأساليبه ، ففي الوقت الذي

أصبحت فيه انجلترا بلدا صناعيا نتيجة للثورة الصناعية بقيت ايرلندا بلدا زراعيا ولم تتأثر بالثورة الصناعية إلا قليلا . وقد زاد في تعقيد هذا الجانب (مشكلة الأراضي) التي كانت العامل المباشر في هذه المعضلة ، ذلك أن أراض ومساحات زراعية واسعة من ايرلندة قد أصبحت بفعل الهيمنة الأنجليزية بأيدي كبار الملاك الأنجليز بالوراثة أو بالشراء الذي بدأ منذ عهد كروميل . إن هذا الواقع وكون معظم الملاك لا يقيمون في ايرلندا وإنما في أنجلترا ولهم وكلاء على هذه الأراضي كانوا يسيئون معاملة الفلاح الايرلندي (الملاك الغائبون Absentee Landlords) قد سبب استياءا كبيرا لدى الايرلنديين الذين يختلفون عن الأنجليز في لغتهم وكثيرا من عاداتهم وتقاليدهم إضافة إلى الحساسية الطائفية المفرطة بين الأنجليز والايرلنديين كبروتستانت وكاثوليك .

من جانب آخر كانت ايرلندة تتمتع باستقلال داخلي ولها برلمان خاص في دبلن حتى نهاية القرن الثامن عشر ، وكان هذا البرلمان خاضعا إلى مجلس العموم البريطاني إلا أنه كان له حق التشريع في الأمور الخاصة بايرلندا فقط وفي بداية القرن التاسع عشر (1800) ألغى الأنجليز ذلك البرلمان بموجب قانون الاتحاد وألحقوا النواب الايرلنديين بمجلس العموم البريطاني في لندن . ولكي تتوضح الصورة في تطور هذه القضية فلابد من عودة سريعة إلى تاريخ العلاقات الانجليزية الايرلندية خلال القرون السادس عشر وحتى نهاية الثامن عشر :

ففي عهد الملك هنري الثامن فتح الانجليز إيرلندة وأصبح ذلك الملك يلقب منذ سنة 1542 بلقب ملك ايرلندة إضافة إلى ألقابه الأخرى . واتبع الأنجليز منذ ذلك التاريخ سياسة « التأصيل » التي يراد منها جعل إيرلندة انجليزية حيث عمل الحكم الانجليزي مصادرة أراضي واسعة وكبيرة من الايرلنديين وجلب معمرين أنجليز للاستيطان فيها . وقد بدأ هذا الغرس بالنشاط بشكل خاص منذ سنة 1555 وتركز في منطقة (الستر) في القسم الشمالي الشرقي من ايرلندة . إضافة إلى ذلك فقد عمل الأنجليز على توطيد سيطرة الكنيسة البروتستانتية الانجليكانية في ايرلندة ، وكانت نتيجة

ذلك أن البروتستانت في إقليم الستر قد أصبحوا يشكلون 60% من السكان ، أما في غير ذلك فقد كانت الأكثرية العظمى لسكان ايرلندة الكاثوليك الذين يكونون 4/5 السكان . لكن هذا لم يمنع من وجود بروتستانت في غير إقليم الستر ، إلا أنهم كانوا مبعثرين وعددهم قليل ويتكونون من ملاك كبار وموظفين ووكلاء الملاك .

قاومت إيرلندة منذ البداية سياسة الاستيطان وفرض البروتستانتية الانجليزية ، فقامت في القرن السابع عشر عدة ثورات قمعت آخرها سنة 1649 في حملة كرومويل . ولم تتحرك ايرلندة بعدها في معظم سنوات القرن الثامن عشر حيث خضعت تماما لانجلترا وعاشت تحت أقسى الأنظمة والعقوبات . إلا أن استقلال المستعمرات الأمريكية والمشاكل والمضايقات التي واجهتها أنجلترا في ذلك الحين قد أدت إلى حصول الايرلنديين على برلمان خاص بهم سنة 1782 مرتبط بمجلس العموم البريطاني . وفي مايو — ايار سنة 1798 ، أيام الثورة الفرنسية ، قام الايرلنديون بثورة قمعت من قبل الأنجليز الذين عاقبوا الايرلنديين بحل برلمانهم الخاص وإلحاقهم ببريطانيا سنة 1800 ونصبوا نائبا للملك في دبلن [26] . وقد بقي الكاثوليك الايرلنديين محرومين من حقوقهم السياسية كلية حتى سنة 1829 عندما أصبح لهم حق التصويت في الانتخاب والعمل في دوائر الدولة . وفي الواقع فإن الاحتجاج الايرلندي لم يظهر بشكل جدي وواضح إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر نتيجة عوامل دينية واقتصادية وقومية :

ففي الجانب الديني كانت الكنيسة الانجليكانية قد استولت على كل أموال وأملاك الكنيسة الكاثوليكية الايرلندية منذ الفتح الأنجليزي مع أنه لم يكن للكنيسة الانجليكانية اتباع إلا في أقسام صغيرة جدا من البلاد مما اضطر الكاثوليك إلى بناء كنائسهم بأموالهم الخاصة رغم أنهم كانوا يدفعون الضرائب لكنيسة (الأقلية) التي لا يوجد لها مؤمنين في أكثر النواحي مما

---

(26) حاطوم، الحركات القومية، ج. 3، ص ص 235 — 236.

ولد لديهم الشعور بالظلم والاضطهاد وعدم وجود العدالة والمساواة . أما عن العلاقة بين الكاثوليك والبروتستانت في المناطق التي يتساكنون فيها مثل الستر ، فقد كانت مقطوعة تماما : فلا زواج ولا علاقات اجتماعية سوى علاقات الاعمال . من جانب آخر كان البروتستانت يكرهون الكاثوليك وتعمل على تغذية أفكارهم بتلك الكراهية (الجمعية الاورانجية) التي كانت نشطة رغم قلة عدد البروتستانت . وبقدر كراهية البروتستانت فقد كان الكاثوليك يبادلونهم المثل ، إلا أن عداءهم كان يحمل روحا ذات طابع قومي ودوراً سياسياً يحرص على استقلاله حيال الدولة والسلطة الأنجليزية .

أما عن الاقتصاد الايرلندي فقد كان زراعيا يشكل الفلاحون والمزارعون فيه 2 /3 السكان . ولم تكن هناك صناعات إلا في بلفاست ودبلن مقتصرة على النسيج . وكان 97% من الأرض الزراعية مملوك من قبل « اللاندلوردز » الأنجليز الذين يبلغ عددهم 14.000 في حين يمتلك بقية الأرض الملاك الصغار الايرلنديين الذين يصل عددهم إلى 540 000، ولم يشن الملاك الانجليز يقيمون في إيرلندة ولهذا كان لهم وكلاء في الأرض.

وخلال السنوات 1846-1852 تضررت الزراعة في إيرلندة بسبب مرض البطاطا ، فحدثت مجاعة خطيرة أدت إلى هجرة العديد من الايرلنديين إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، مما أدى إلى انخفاض أسعار الحنطة بشكل كبير لدرجة أنه لم يعد يوفر ربحا للملاكين الأنجليز فقرروا العودة إلى الرعي ، فكان لذلك التحول أثره الكبير في زيادة البطالة الزراعية بوجود فائض في الأيدي الزراعية التي فقدت الأرض التي تزرعها ، كما أن الملاك الأنجليز طردوا المستأجرين بعد أن أصبح هؤلاء عاجزين عن دفع ثمن الكراء بسبب انخفاض الأسعار . لقد طرد حوالي 58.400 مستأجر واضطرت أكثر من 300.000 إمرأة لمغادرة البيوت التي يسكن فيها لأنهن من المستأجرين ، فاصبح الفلاح يعيش في حالة بائسة ساعد على تفاقمها رفض إدارة العمل الأنجليزية مساعدة من كان يملك في السابق حقلا متوسط الأبعاد .

لقد ترك هذا الطرد مرارة شديدة في نفوس الايرلنديين الكاثوليك وحدثت هجرة كبيرة خلال السنوات 1846 ــ 1900 إلى الولايات المتحدة بحيث أن نفوس إيرلندة كانت سنة 1841 تساوي حوالي ثمانية ملايين ونصف نسمة قد أصبحت سنة 1900 أربعة ملايين ونصف . أي أن عدد السكان قد نقص بمقدار النصف في نصف قرن . ومما زاد في الأمر سوءا أن العناصر الفتية هي التي هاجرت فكانت عوائلهم تحمل الغيظ والغضب ضد الأنجليز . وقد عبر الايرلنديون الكاثوليك عن ذلك الغضب بأعمال انتقامية ضد الملاك الأنجليز سواء في حرق ممتلكاتهم أو سلبهم أو قتلهم بحيث أصبح (القتل الزراعي) كما عبر عنه الأنجليز أمرا شائعا بعد أن تكونت جمعيات فلاحية سرية هدفها الانتقام من الملاك الذين طردوهم دون سبب وبلا تعويض عن التحسينات التي أجروها في الأرض مما ولد شعورا قوميا بضرورة التخلص من السلطة (الأجنبية) الأنجليزية وتحقيق الحكم الايرلندي الذاتي أو المستقل .

إن هذه العوامل والحالة السياسية واحتقار الأنجليز للايرلنديين قد أدى إلى ظهور الاحتجاج الايرلندي الذي اتخذ أسلوبين للتعبير عن نفسه وهما الأسلوب السلمي والأسلوب الثوري ، ففي الأسلوب الأول تكونت عصبة حقوق الفلاحين سنة 1850 ورفعت شعار : (آجار معقول) : أي أن يكون ثابتا ومحددا وفق القانون . و (ثبات الأرض) أي عدم طرد الفلاح ما دام يدفع الاجار . و (حرية البيع) أي أن المستأجر له حق الاجار لفلاح آخر . واستطاعت العصبة أن تحقق انتخاب خمسين من أعضائها في الوفد الايرلندي إلى مجلس العموم المكون من 103 ايرلنديين ، لكنهم كانوا قليلين وغير قادرين من الناحية العددية على استحصال موافقة مجلس العموم لاصدار قرارات لصالحهم . ومع ذلك فقد صدر سنة 1860 قانونا يعطي بموجبه الملاك تعويضا إلى المستأجر إذا كان قد أجرى تحسينات على الأرض التي استأجرها . أما المنظمة الأخرى فهي (العصبة القانونية) التي طالبت باستقلال ايرلندة الذاتي .

وفي مجال الأسلوب الثوري فقد كان المهاجرون إلى الولايات المتحدة المحرك الاساسي له حين شكلوا جمعية (الفنيان) في المنفى وأوجدوا لها فروع في ايرلندة الغرض منها الاعداد لثورة مسلحة ضد السيطرة الانجليزية ، وذلك بأن يقدم الايرلنديون المهاجرون المال والسلاح ، وبمساعدة الجنود الايرلنديين الذين يعملون في القطاعات الانجليزية المتواجدة في ايرلندة تعلن الثورة . وقد أعلنت الجمعية من المنفى استقلال ايرلندة الجمهورية . وأنشأت الجمعية جريدة (الشعب الايرلندي) السرية التي كانت تؤكد أن الأنجليز لن يستجيبوا لمطالب الايرلنديين إلا بالقوة وأنه من العبث النقاش معهم أو مطالبتهم سلميا بالحكم الذاتي . وبناء على ذلك بدأ بعض الايرلنديين المقيمين في الولايات المتحدة بالتدرب على السلاح كما كسب بعض الخبرة من خلال مشاركتهم في حرب الانفصال الأمريكية سنة 1860 ــ 1865 وبعد انتهاء الحرب وتسريحهم من الجيش فكروا بالعودة إلى ايرلندة لتدريب أبناء شعبهم وهكذا أصبحت جمعية الفنيان أكثرية جدية في عملها . وفي 1865 تلقى البوليس الانجليزي معلومات بوجود مؤامرة ؛ فبدأت الحركة القمعية ضد الحركة الايرلندية وتم كبس مقر الجريدة السري . وفي 1866 صدرت الأوامر بإيقاف وسجن المئات من الايرلنديين وفقا لقانون الاستثناء الذي صدر من أجل هذا الهدف والذي نص على تعليق القانون الذي يمنع ايقاف المواطن دون حكم . وهكذا بدأ فتيل الثورة بالاشتعال إذ تقرر في 1867 في اجتماع بالولايات المتحدة ، عقده المهاجرون ، إعلان الحرب وبدأت الثورات الايرلندية في أماكن مختلفة من ايرلندة ، ومع أن هذه الثورات لم تأت بنتيجة حاسمة إلا أنها ساعدت على القيام باصلاحات جوهرية .

ظهرت الاصلاحات في الفترة 1868 ــ 1910 ، إلا أنها لم تكن إصلاحات سياسية ، بمعنى أن ايرلندة بقيت كما هي تابعة لانجلترا كلية ، لكن النضال الآيرلندي حقق إصلاحات في مضمار المذهب والأرض الزراعية . وقد جاء نتيجة للاحتجاج الذي اتخذ أسلوبين لتحقيق أهدافه هما أسلوب العنف وأسلوب الضغط في مجلس العموم في آن واحد ، وقاد هذا

الأسلوب الأخير (جالس ستيوارت بارنيل 1846 ــ 1860)[27] الذي سعى إلى توحيد الايرلنديين كافة كقومية تضم البروتستانت والكاثوليك وطالب الحكومة الأنجليزية بمنح ايرلندة حكما ذاتيا ، لقد تمثل أسلوب العنف بما أطلق عليه (الجرائم الزراعية) والمقصود بهذا التعبير أعمال حرق حقول الملاك الكبار وإطلاق النار على وكلائهم واغتيالهم من قبل الفلاحين المطرودين من أراضيهم . وقد شهدت سنة 1882 الحد الأقصى لتلك الجرائم حين وقعت في شهر أبريل ــ نيسان 531 محاولة اغتيال ، إضافة إلى اغتيال قريب رئيس الوزراء البريطاني غلاّدستون ، اللورد كافنديش مع مساعده في دبلن والذي كان يشغل منصب كبير الأمناء في ايرلندة . ولم تقتصر هذه المحاولات والاغتيالات على ايرلندة لوحده بل امتدت إلى انجلترا نفسها بالقاء الديناميت في محطات لندن وسجونها ووصل الأمر إلى نسف أبنية (سكوتلنديارد) مقر قيادة الشرطة البريطانية بالديناميت سنة 1883 . يضاف إلى هذا قيام تظاهرات ضخمة في لندن ودبلن قادت إلى الاصطدام بالشرطة البريطانية وقتل وجرح العديد من المتظاهرين .

إن أسلوب العنف الذي تزامن مع الضغط السياسي في مجلس العموم قد قاد وزارة الأحرار وغلادستون إلى محاولة القيام بإصلاحات في ايرلندة في المجالين الديني والزراعي . ففي المجال الديني تبنى غلادستون مشروعا أقره مجلس العموم سنة 1869 أصبحت بموجبه الكنيسة الانجليكانية مجرد كنيسة عادية وليست كنيسة دولة ، ففقدت بهذا حق جباية الضرائب ، ولم تعد مؤسسة سياسية لها تمثيلها في مجلس اللوردات ، وبذلك بدأت الأموال المجباة من الضرائب تعود إلى الدولة وجمعيات التعليم والاحسان الايرلندية ومدارسها الكاثوليكية . لقد كان غلادستون يعتقد أنه لا ضرورة لتغذية حقد

---

(27) هو ابن ملاك انجليزي بروتستانتي وأم إيرلندية مهاجرة. درس في كمبرج وعند عودته إلى إيرلندة اهتم بقضيتها وكان له تأثير كبير في ذلك وأصبح فيما بعد قائداً لايرلندا وملكها غير المتوج.

الايرلنديين. ومنهم الفلاحين ضد الأنجليز ولذلك اتجه أيضا إلى القيام باصلاحات زراعية ، فصدر قانون إصلاح 1870 الذي تقرر بموجبه عدم طرد الفلاح من الأرض ما دام يدفع الكراء إلا في حالات خاصة . كما أعطى القانون للفلاح الحق في بيع حقه في التأجير ، وللمالك في بعض الحالات حق معارضة البيع على أن يأخذ الفلاح تعويضا عن التحسينات التي أدخلها على الأبنية أو الأرض في حالة تركه إياه . وأخيرا قرر القانون تشجيع الفلاح على شراء الأرض ، وأن تقوم الدولة بتسليفه ثلثي ثمنها . وفي سنة 1881 تحقق القسم الأعظم من الشعار الثلاثي الذي رفعته عصبة حقوق الفلاحين . ومن الملاحظ أن صدور القوانين والتعديلات استمرت حتى خلال فترة حكم المحافظين 1886 — 1892 و 1902 — 1905 . وكانت نتيجة الاصلاح أن أصبح ثلثي الأراضي الزراعية الايرلندية ملكا للفلاحين الذين اشتروها(28) .

كان مبدأ تحقيق الحكم الذاتي لايرلندة هدفا من أهداف زعيم حزب الأحرار غلادستون الذي تقدم في سنة 1886 بلائحة بهذا الخصوص من مجلس العموم لكنه رفضها واضطر غلادستون أن يستقيل نتيجة المعارضة القوية لحزب المحافظين الذي كان يدعو إلى التمسك بقرار 1800 الخاص بدمج ايرلندة بانجلترا . وعندما جاء الأحرار إلى الحكم للمرة الثالثة سنة 1893 تمكنوا من الحصول على موافقة مجلس العموم على لائحة الحكم الذاتي لايرلندة لكن مجلس اللوردات رفضها مما دفع غلادستون إلى الاستقالة واعتزال العمل السياسي . والحقيقة أن معارضة المحافظين كانت هي السبب وراء فشل لائحة الحكم الذاتي ، تلك المعارضة التي زادت المعضلة الايرلندية تعقيدا وأثارت الفكرة القومية بشكل كبير فتألف سنة 1906 حزب جديد باسم حزب (شين فين) من الشباب الايرلندي المثقف هدفه إقامة جمهورية مستقلة في ايرلندة ، وكان من أشهر رجاله ارثر كريفت

---

(28) حاطوم، المصدر السابق، ص ص 268 — 269.

(1872 — 1922) . إلا أن المرحلة هذه لم تكن تسمح بغير إقامة الحكم الذاتي الذي تحقق سنة 1914 بتشكيل برلمان مستقل في دبلن يخضع في الأمور العسكرية والمالية وبعض الأمور الأخرى لموافقة مجلس العموم البريطاني . ومع هذا فإن تنفيذ اللائحة الخاصة بإقامة الحكم الذاتي لم تنفذ بسبب قيام الحرب العالمية الأولى . ولم تظهر جمهورية ايرلندة المستقلة إلا بعد انتهاء الحرب حينما أعلن أعضاء (شين فين) عن قيام مجلس جمهوري ايرلندي واختاروا فاليرا رئيسا للجمهورية وكريفت نائبا له ؛ وقد رفضت (مقاطعة الستر) الانظمام إلى الجمهورية وأصرت على عدم الانفصال عن بريطانيا . ولم يتحقق نظام الحكم الجمهوري في ايرلندة إلا بقيام ثورتها سنة 1919 — 1921 بزعامة حزب شين فين التي أجبرت البريطانيين على إقرار وتطبيق الحكم الذاتي ليكون مرحلة أولى أدت في النهاية إلى استقلال ايرلندة عدا (الستر) التي ما زالت مشكلتها قائمة إلى يومنا هذا حيث يحاول الكاثوليك الأقلية فيها الانفصال عن بريطانيا في حين يشكل سكان الستر في شمال جزيرة ايرلندة أغلبية بروتستانتية ولهذا لم يتوفر الحل الملائم لهذه القضية إلى وقتنا هذا .